الثورة الروسية
الشيوعيون على عرش القيصر

- انهيار روسيا
- ماركس
- لينين
- ثورة ١٩٠٥
- الأحد الدامي
- ديمقراطية وليدة
- راسبوتين..الراهب يحكم
- زعيم...بلا جماهير
- خسارة الحرب
- الثورة
- يوم النساء
- انتصار البلاشفة
- القيصر يتنازل
- الحكومة المؤقتة
- عودة الغائب
- اعلان الجمهورية
- ثورة أكتوبر

obeikandi.com

إذا سألت عن أعظم وأكبر حدث في القرن العشرين فلن يتردد الكثير من المؤرخين العالميين على التأكيد بأن الثورة الروسية التي أوصلت البلاشفة الماركسيين إلى الحكم هي الحدث الأبرز في القرن المنصرم ربما لايوازيه حدث إلا سقوط الاتحاد السوفيتي نفسه قرب نهاية القرن ذاته، فالثورة الروسية جرت العالم كله في ركابها، ونتائجها المباشرة أثرت على مختلف اصقاع العالم ونتائجها غير المباشرة ما تزال تحيا في البعد الإجتماعي لمخلف حكومات العالم، فمن ينسى الاتحاد السوفيتي تلك القوة العظمى في العالم، ومن ينسى القضاء على هتلر الذي دفنت احلامه بالسيطرة على العالم في ثلوج السوفيت القاسية، بل ان سكوت بريطانيا وفرنسا على تسليح ألمانيا كان نابعا من خوفهما من تنامي المد الشيوعي. ومن ينسى دعم حركات التحرر في العالم الثالث، وما زالت الحرب الباردة ماثلة في الأذهان يعمل العالم على الخروج من أثارها، هذا على مستوى الدول أما مستوى البشر فقد جاءت الثورة الروسية بما حملته من أفكار طوباوية مثالية عن تحقيق عالم المساواة المطلقة وإنهاء صراع الطبقات بين الأغنياء والفقراء لصالح أن يأكل الجميع من طبق واحد ويعملوا في مصنع واحد، أن يكون الفقر محتملا والغنى غير فاحش، مجتمع تسوده قيم العمل والإخلاص وتحقيق مبدأ "الكل في واحد" كل هذه القيم كانت دافعا للعديد من المفكرين والشعوب للبحث عن حلول حقيقية لأزمات مجتمعاتهم، فتحققت بالثورة الروسية ثورة عالمية وإضطرت الدول الرأسمالية -على الرغم من عدائها للماركسية بصورها المختلفة- إلى الإهتمام بالبعد الإجتماعي، ورغم مثالية دعوات الثورة الروسية وانحراف زعماء السوفييت عنها إلا ان ثورة البوليتاريا (الطبقة العاملة الكادحة) تجربة فريدة في تاريخ الثورات العالمية ونموذج يحتذى.

انهيار روسيا

كانت الأوضاع في روسيا القيصرية طوال القرن التاسع عشر تسير من سيء إلى أسواء، فالفلاحين حياتهم سلسلة من المآسي المتصلة، الفقر عنوانها والموت رفيقها، كانت معظم الأسرات تعيش في غرفة واحدة أو كوخ واحد مغطى بالقش لا يحمي من برد، طعامهم الخبز لمن يجده، وظلت أماكن كثيرة في الإمبراطورية الروسية لا يجد

فيها الفلاح ما يكفي ليسد رمقه. أما العمال في المدن فلم تكن حياتهم نعيم متصل بل أن ظروفهم المعيشية كانت شديدة القسوة فقد كانوا عبيدا لرغبات النبلاء سادة المدن وكانوا يعيشون على الهامش بعيدا.

لذلك كان المواطن الروسي البسيط لا يتمنى من الله إلا ان يعجل بموته في ظل نظام أعطى الطبقة الحاكمة من رجال البلاط والنبلاء كل الثروة وكل الامتيازات، وتستأثر بكل السلطة السياسية، وكانت نظرتهم للفلاحين فضلا عن أنها استعلائية، فقد أنزلوهم مرتبة الحيوانات التي لاحقوق لها، وهو موقف مفهوم في روسيا فقد كان القياصرة مؤمنين وباستمرار أن روسيا ليست أوروبا الغربية وأنها لم تتهيأ بعد للديمقراطية وأن القليل من الديمقراطية لشعب جاهل كالشعب الروسي سيؤدي إلى ان تلك الملايين غير الواعية ستكتسح كل شيء أمامها مخلفة الفوضى والخراب والدمار، وهي حجة كل حاكم مستبد في كل زمان ومكان، لذلك لم يكن غريبا أن يكون مجلس الوزراء مجرد هيئة استشارية، أو بمعنى أصح "مجالس كلام" لا تملك من الفعل شيئا. ولمزيد من السيطرة وضمان ولاء جزء كبير من الشعب للنظام القام كانت روسيا القيصرية تضم أكبر نظام بيوقراطي في العالم يضم ١٠% من الذكور في الدولة كلها، وكانت هناك اربعة عشر مرتبة وظيفية لكل منها شعارها الخاص وامتيازاتها ومرتباتها.

وسط هذا كله كان القيصر يحكم من خلال التفويض الإلهي للملوك وكان على رأي نظام ينتمي في العصور الوسطى بإمتياز، وهو النظام الوحيد في أوروبا كلها الذي رفض التطوير وتمسك بالتقاليد الشرقية، فقد كانت روسيا دولة أروبية حقيقة لكنها إمبراطورية أسيوية بإمتياز ورثت التقاليد المغولية والتركية والسلافية العريقة في إصباغ كل مظاهر القوة والجبروت على قياصرة هذه الدولة الضخمة، منذ بداية حكم آل رومانوف (١٤٩٤-١٩١٧م) على يد إيفان الرهيب مرورا ببطرس الأكبر وكاترين العظمى، وهو حكم تدعم وإزداد قوة بعد إدعاء آل رومانوف وراثتهم للدولتين الرومانية والبيزنطية واعتبروا أنفسهم حماة المذهب الأرثوذكسي بعد سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م، فجمعوا السلطتين الدنيوية والدينية في

شخص القيصر في حين كان مجلس الوزراء مجرد قطعة ديكور زائدة من السهل التخلص منها عندما يرغب القيصر، وقد حدث كثيرا، الغريب أن تمسك القياصرة الروس بسلطات الحكم المطلق جاءت في زمن تخلصت فيه الشعوب الأوروبية من تباعات هذا الحكم البغيض للملوك بعد الثورة الدستورية الإنجليزية والثورة الفرنسية الملهمة، ثم عمليات الإصلاح في مختلف الدول الأوروبية طوال القرن التاسع عشر التي تزامنت مع المد القومي الذي شهد توحيد إيطاليا ثم ألمانيا، بقت روسيا القيصرية بعيدة عن كل هذا الصخب تصده حينا وتحتمي بثلوجها حينا أخر، لم تكن معنية إلا بمد نفوذها إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط ، فقد كانت روسيا وماتزال تمتلك أطول واجهة بحرية في العالم لكنها غير مستغلة لأنها تطل على المحيط المتجمد، لذلك كانت أهداف السياسة القيصرية مد نفوذها غربا وصولا إلى مياه البلطيق وجنوبا حيث المتوسط، إلا ان مساعيها غربا أحبطت من قبل بريطانيا العظمى وألمانيا اللتان عملتا على صد أي هجوم من قبل الدب الروسي، في حين أن ماسعيها في الجنوب تحققت جزئيا بعد انتصارات كبيرة على الدولة العثمانية اعقبتها معاهدات سمحت للأسطول الروسي بالوصول إلى البحر المتوسط إلا ان الأسطول البريطاني المنتشر في قواعد عدة في المتوسط قلل من قيمة هذه الإنتصارات والمعاهدات، بدأت الإمبراطورية الروسية رغم اتساعها سجينة حدودها وهي تمتلك الجيش البري الأكبر في العالم، لذلك استسلم القياصرة إلى تيار الجمود وعدم الإبتكار فرضخت للاستبداد خصوصا وان الإمبراطورية الروسية كانت إمبراطورية متعددة الجنسيات فكان الحكم الفردي المطلق هو العلاج الناجع لمحاولات التحرر الوطني التي رفضت الرضوخ لنير الإحتلال الروسي، إلا أن الاستبداد قرين الجمود لذلك لم تحاول روسيا التحول إلى دولة صناعية شأنها شأن غيرها من الدول الأوروبية الكبرى، فظل النظام الإقطاعي هو القاعدة الأساسية للإقتصاد ولم تتعد طبقة الفلاحين وضعها كعبيد أرض تعرضوا إلى أشد انواع العذاب من قبل إقطاعيين بلا قلب، ولا يعني هذا خلو روسيا من الصناعة فقد دخلت الصناعة على استحياء المناطق الغربية من الدولة ولكنها لم تكن صناعة من أجل الارتقاء بشأن الروسيين بل كانت لتوفير

طلبات النبلاء والبيت الحاكم واحتياجاتهم.

ماركس

وسط هذا كله بدأت بعض الأفكار الأوروبية تتسلل تنادي بالحرية والعدالة الإجتماعية، ولعل أبرز ما تسرب إلى روسيا في منتصف القرن التاسع عشر وصول أفكار المفكر الألماني الكبير كارل ماركس إلى روسيا، وكان ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) قد وضع مع صديقه فريدريك إنجلز أسس الإشتراكية العلمية التي تعتبر تطوير لفلسفة هيجل العقلية وفلسفة السان سيمونية المثالية، وخرجا برؤيتهما المتكاملة على العالم في ما بات يعرف باسم "البيان الشيوعي الأول" سنة ١٨٤٥م، الذي أرسى قواعد الاشتراكية العلمية والمادية الجدلية للتاريخ، التي وصف ماركس من خلالها التطور العالمي للأمم من خلال صراع الطبقات الذي سينتهي بالتطور الطبيعي وصولا إلى المجتمع الذي تسوده الإشتراكية وطبقة البروليتاريا العاملة، وبشر بمجتمع تسوده الاخاء والمساواة وإزالة الفروق بين الطبقات ودشن النداء الشهير "يا عمال العالم اتحدوا" للثورة على البرجوازيين الذين استغلوا طبقة العمال في ظل آليات النظام الرأسمالي. وباعتبار النموذج البرجوازي هو التطور الطبيعي للنظام الإقطاعي، فإن تطور البرجوازي لن يؤدي إلا إلى سيادة الاشتراكية. لذلك توقع ماركس أن تتحول المجتمعات الرأسمالية – البرجوازية الكبرى إلى الإشتراكية كبريطانيا وامريكا.

وصلت هذه الأفكار إلى روسيا سريعا وبدأت تلقى ذيوعا على الرغم من عدم تنبأ ماركس بأي عمل ثوري قد يحدث في روسيا وكان غير راضيا عن أداء الاشتراكيين الروس فقد كتب مرة إلى أنجلز يقول "لست بأي روسي واثقا...إن جهنم ستفتح أبوابها قبل أن يبدأ الروسي يأخذ طريقه على مهل قدما". وكان يعتقد أن أمام روسيا طريق طويل للغاية قبل أن تتحق الاشتراكية فيها، وكانت انظاره مسلطة دائما على بريطانيا وأمريكا بإعتبارهما أكبر الدول الصناعية التي يوجد بها طبقة عمال واعية.

ومن جانبه ابتدع الروائي الروسي تورجنيف مذهب "العدمية" التي انتشرت في الأوساط الثورية في سنوات١٨٥٠-١٨٦٠م للتعبير عن مذهب ينادي بإعدام كل

الهيئات والسلطات القائمة، وتقترن به فكرة تقول إن المستقبل لن يأتي عن طريق الفن بل عن طريق "العلم". في وقت بدأت روسيا تشهد محاولات الطبقة المتعلمة التواصل مع الفلاحين، وظهرت الحركة المعروفة بـ"الناروديك" التي دعت إلى ان الثورة يجب أن نأتي من جانب الفلاحين لأن لهفتهم الغريزية على الحكم الجماعي هي وحدها التي سوف تنشئ الدولة الروسية الجديدة. وظهرت فكرة الدولة الشيوعية القائمة على مبادئ طوبوية مثالية على يد "بيتر تكاتشف".

وفي عام ١٨٨٣م (وهو العام الذي مات فيه كارل ماركس) ظهر جورج فالانتينوفتش بليخانوف الذي أسس في هذا العام في مدينة جنيف السويسرية مع العديد من الرفاق حزب "التحرير العمالي" أول حزب ماركسي في تاريخ روسيا، وكان بليخانوف يؤمن بأن الثورة ستكون ممكنة عندما تصبح روسيا دولة صناعية وبعد أن تنشأ طبقة البروليتارية، وهو بذلك يساير جوهر نظرية كارل ماركس. وهنا سيطرت على الساحة الثورية الخفية رأيان أولهما مثله بليخانوف والماركسيين بأن الثورة لن تقوم إلا من خلال العامل الكادح، في حين رأى "الناروديك" أن الثورة لن تعتمد إلا على الفلاح. وهو خلاف سيكون له أثره في المستقبل.

استطاع بليخانوف جمع أنصاره وتوحيد صف الماركسيون داخل روسيا في مؤتمر مدينة "منسك" ١٨٩٨م ودعوا أنفسم من يومئذ باسم الحزب "الاشتراكي الديمقراطي"، فيما تحول حزب الناردونيك إلى "الحزب الثوري الاشتراكي". وأصبحا معا يشكلان التيار الثوري الغالب على روسيا مطلع القرن العشرين.

كان دور بليخانوف هو تهيئة الأرض والأجواء للبطل الذي اختارته الأقدار، فقدر قرر بليخانوف جمع شتات حزبه في مدينة بروكسل عام ١٩٠٣م وبدى أن بليخانوف في عز مجده ونجاحه، لكنه لم يدر أنه في طريقه للظل بعد صعود فلاديمير أوليانوف المعروف أكثر باسم "لينين".

"لينين"

ولد فلاديمير أوليانوف المعروف أكثر باسمه الحركي "لينين"، في مدينة سيمبرسك(تم تغيير اسمها إلى أوليا نوفسك نسبة إلى اسم لينين الأول) في ٢٢ أبريل

١٨٧٠م، ونشأ في أسرة بيروقراطية ميسورة الحال، ولم يكن لينين مختلفا عن غيره من الشباب المتعلم تعليم جيد الرافض للأوضاع المتدهورة في روسيا، إلا أن المتغيير الرئيسي في حياته جاء من قبل أخيه الأكبر إسكندر الذي اشترك في مؤامرة لإغتيال القيصر المستبد الإسكندر الثالث، فتم القبض على تلك المجموعة وحكم عليها بالإعدام الذي نفذ على اسكندر في يوم ٢٠ مايو ١٨٨٧م. كان وقع تلك الحادثة على أسرة لينين كارثيا فقد مات الأب أثر نزيف في المخ وأصبحت زوجته وحيدة في الدنيا، تواجه ازدراء المجتمع لها والخوف من الاقتراب منها ومن ابناءها، أما لينين فقد حسم أمره يومئذ فقد قرر الانخراط في التنظيمات اليسارية وبقوة وبندفاع أدى إلى طرده من كلية الحقوق، إلا أن توسلات أمه للسلطات أعادته من جديد إلى الجامعة التي استطاع ان ينهي مقرراتها الدراسية في عام واحد، ليتخرج في عام ١٨٩٣م حيث اشتغل بالمحاماة والتقى بزوجته المستقبلية "كروبسكايا"، وبحجة العلاج من الالتهاب الرئوي حصل لينين على تصريح بمغادرة البلاد في عام ١٨٩٥م فقد كان غرضه الاول هو الإلتقاء برموز اليسار الروس المبعدين عن البلاد فطاف خلال اربعة اشهر اوروبا يلتقي بالماركسيين الروس وكان على رأسهم بليخانوف في جنيف.

وبعد عودته إلى روسيا أصبح لينين نشطا تنظيميا بصورة كبيرة، فأنشأ حزبا سريا عرف باسم "النضال في سبيل تحرير الطبقة العاملة"، وظل يتنقل بين المدن الروسية يدعو إلى تنظيم الإضرابات، إلا أنه وقع في يد الشرطة، ودخل لينين السجن الذي لبث فيه أربعة عشر شهرا، قبل أن يبلغ أنه سينقل إلى معتقلات سيبيريا ليقضي عقبة ثلاث سنوات أخرى، كانت سيبيريا تعد منتدى الثوار المفتوح حينذاك، لذلك لم يغضب لينين عندما علم بخبر نقله خصوصا أن النفي إلى سيبيريا لم يكن مقترنا بالتعذيب كما حدث في الحقبة السفيتية فيما بعد، إذن كان النفي إلى سيبيريا مجرد إبعاد للشخص عن دوائر صنع القرار وتحديد إقامته في الأقليم الذي حدد له من أقاليم سيبيريا، فلم يكن هناك سجن بالمعنى المألوف في سيبيريا.

لذلك استغل لينين الفراغ الإجباري الذي اتيح له للقيام بعمليات صيد وممارسة السباحة وتبادل الزيارات مع رفاق المنفى، فضلا عن القراءة بنهم، كما انه تزوج من

"كروبسكايا" بعد أن تعرضت للنفي هي الأخرى، لكن الأهم أن لينين استغل الفترة بشكل أساسي في التأليف والترجمة فقد ألف أوول كتاب ضخم بعنوان "تطور الرأسمالية في روسيا".

ثورة ١٩٠٥م

خرج لينين إلى الحرية في عام ١٩٠٠م وشغله الشاغل إصدار صحيفة "أسكرا" الثورية، سافر إلى جنيف لمقابلة الرفاق القدامة، وهناك جد الخلاف قد نشب بين بليخانوف وغيره من الرفاق حوول رئاسة تحرير الصحيفة، استقر الوضع على أن تتلوى إدارة تحرير "أسكرا" هيئة مؤلفة من بليخانوف وزاسوليخ وأكسلرود ممثلين للماركسيين القدماء، ولينين وبتروسوف ومارتوف ممثلين للماركسيين الجدد.

ومن ألمانيا (التي كانت على عداء دائم مع روسيا) التي اتخذها لينين مقرا لمزاولة نشاطه، صدر العدد الأول من "أسكرا"، ووصلت نسخ مهربة إلى رووسيا لتلاقي بنجاح ساحق فقد عدها العمال المعبر الأول عنهم، وتحول لينين إلى أسطورة حية بين الثوار في روسيا. وأثناء تجوال لينين مع زوجه في لندن التي اختباءا فيها لفترة جاءه شاب سيكون له شأن فيما بعد هو "تروتسكي" الذي أعجب به لينين وضمه لهيئة تحرير "أسكرا".

انشغل بعد ذلك لينين بالتحضير لمؤتمر بروكسل الذي دعى له بيلخانوف، واستطاع لينين أن يفرض إرادته على المؤتمر بشكل كبير بفارق صوتين وأخذ ينادي بأنه وأنصاره حزب الأغلبية "البلاشفة" وأن خصومه هم الأقلية "المناشفة"،وقرر المؤتمر أن الحزب الديمقراطي الاشتراكي يشرف عليه مجموعة "أسكرا" وعلى رأسهم لينين. لم تمر أيام قليلة حتى استطاع المناشفة السيطر على الحزب والجريدة، وهو مر دفع "لينين" لإصدار جريدة جديدة تحت اسم "فبريد"، سعى من خلالها إلى إعادة سلطانه من جديد على الحزب و"أسكرا". إلا أن عدة متغيرات جرت على الساحة داخل روسيا كان لها أكبر الأثر على حياة لينين ورفاقه.

فقد جاءت الحرب اليابانية-الروسية ١٩٠٤-١٩٠٥م حول الصراع على النفوذ في شبه الجزيرة الكورية، كاشفة لمدى الإنهيار الذي وصلت إليه روسيا، فالحرب لم تكن

إلا سلسلة طويلة من الهزائم الفاضحة للجيش والأسطول الروسيين من أمة صغيرة بكل المقاييس، وعلى الرغم من تدخل الولايات المتحدة لإنهاء الحرب بشروط لا تحمل إهانة للجانب الروسي، إلا أن خسائر روسيا المعنوية كانت فادحة فقد خسرت سمعتها كقوى عظمى في العالم وتراخت سلطة القيصر في الداخل، وبدأت طلائع الحركة الوطنية تطل برأسها، وتفجرت الأوضع سريعا في شكل ثورة حقيقية كادت تعصف بالقيصر مبكرا.

الأحد الدامي

سادت حالة من السخط العام الذي شمل جميع فئات المجتمع ضد القيصر وقرارته واستبداده بالسلطة، وهو ما دفع الأب جورج جابون، وهو رئيس اتحاد عمال المصانع الروس، فقد فشل اضراب قام به عمال المعادن في سان بطرسبرج، فقرر الأب جابون تنظيم مسيرة إلى قصر القيصر لرفع عريضة شكوى، تتضمن مالب العمال بإقرار مدة العمل بثماني ساعات، وفي ٢٢ من يناير سار أكثر من ٢٠٠ ألف متظاهر يقودهم الأب جابون صوب قصر القيصر الشتوي في مدينة سان بطرسبرج، كان القيصر قد هرب إلى قصره الصيفي في مدينة زاريسكوسيلو، ولم يعد بعدها لدار ملكه مرة أخرى. لم يسمح حراس القصر القيصري المسيرة بالتقدم فقد أطلقوا النيران بكثافة فسقط خمسمائة قتيل في الحال، وتحول المتظاهرين أو بقيتهم إن شئت الدقة إلى ثوار بسبب غباء الحكومة القيصرية، واستطاع جابون مغادرة البلاد حيث دعا زعماء اليسار الروسي لتنظيم انفسهم خلف صف الثورة المشتعلة، ولم يستجب لدعوته إلا "تروتسكي" الذي عاد لروسيا ليقود الثورة من فناندة التابعة للإمبراطورية. وعمت الثورة بولندا وولايات البلطيق والقوقاز، وبعد عودة الجنود من ميدان المعركة يحملون ذل الهزيمة شاركوا في الثورة فبدأت تعلن العديد من المدن بما فيها موسكو العاصمة القديمة الثورة، وأنشأ ممثلي المصانع في مدينة سان بطرس برج سوفييت(مجلسا مركزيا) يقوم بمهمة إدارة الخطط الثورية ووضع السياسة العامة، وهو السوفييت الذي أشرف عليه المناشفة.

استسلم القيصر نيقولا الثاني أمام ثورة عمت روسيا كلها، وأعلن عن منحه

الروس أول دستور في تاريخهم كله، وحصل الروس على أول برلمان منتخب "الدوما"، لكن القيصر المتمسك بأهداب سلطته الواهية احتفظ بالإشراف المباشر على الجيش والبحرية والسياسة الخارجية ووزارة الداخلية. وكانت هذه خطوة كبيرة ولاشك صوب الديمقراطية التي ناشدها الروس فكانت ان تفتت قوى الثورة واخمدت في ديسمبر ١٩٠٥م، بعد أن تعلم منها الروس والأحزاب كيفية الثورة. وكان الاستعداد لجولة قادمة حاسمة أمرا مشروعا في ظل مطالبة المناشفة والبلاشفة للمزيد من الحرية والديمقراطية لتأسيس المجتمع البرجوازي كخطوة أساسية وضرورية قبل التحول كان الاستعداد لجولة قادمة حاسمة أمرا مشروعا في ظل مطالبة المناشفة والبلاشفة للمزيد من الحرية والديمقراطية لتأسيس المجتمع البرجوازي كخطوة أساسية وضرورية قبل التحول للمجتمع الإشتراكي، ورغبة القيصر في الانقضاض على ثمار الثورة والعودوة بالأمور خطوة إلى الخلف، فاستغل الطرفين السنوات العشر التالية للحشد والاستعداد للجولة الفاصلة.

ديموقراطية وليدة

جربت روسيا لأول مرة نظاما شبيها بالديمقراطية، بعد ثورة ١٩٠٥م، وأخذت سمعة الحكومة في التحسن التدريجي، وبدأ تيار التنصيع يشتد، فيما بدأت التيارات الثورية التي تلقت ضربة أمنية قاسية في أعقاب ثورة ١٩٠٥م الفاشلة تتراجع وتتوارى لتلتقط أنفاسها وتجمع شتاتها، في وقت كانت الديمقراطية الناشئة في روسيا حديثا ضعيفة يتربص بها القيصر الدوائر للإنقضاض عليها والإطاحة بها، لذلك عندما انعقد مجلس الدوما لأول مرة في تاريخ روسيا في مايو ١٩٠٦م قصر "توريد" في سان بطرسبرج لم يكن في خلد القيصر أن ينفذ أي من مقترحات المجلس، ففي الجلسة الإفتتاحية ألقى النواب -الذين تم انتخابهم بطريقة نزيهة- خطاب العرش على الطريقة الإنجليزية وطالب فيه النواب بسلسلة من الإصلاحات، لكن القيصر أوعز إلى الحكومة برفض هذه الإقتراحات، وهو موقف رفضه النواب صراحة، وطالبوا بإستقالة الحكومة التي رفضت هذا الأمر وتمسكت بموقفها، وبدى في الأفق نذر معركة قادمة، إلا أن القيصر انتهز الفرصة وحل الدوما في ٢٢ يوليو، ورغم

محاولات النواب استثارة المواطنين الروس من أجل العودة إلى الثورة من جديد، إلا أنهم فضلوا بعد تجربة الثورة الخلود إلى الهدوء والسكينة، فضاعت دعوات النواب أدراج الرياح، وأصبحت تلك الحادثة (فض الدوما) سابقة ستتكرر طوال السنوات التالية حتى قيام الثورة.

بدى أن الأوضاع ستعاود سيرتها الأولى وأن القيصر سيعمل للقضاء على جميع مكاسب الثورة، إلا أن وصول شخصية مستنيرة هي شخصية "ستوليبين" إلى رئاسة الوزراء في عام ١٩٠٦م كان بادرة أمل، فقد امتاز بنزاهة يديه وإخلاصه في العمل ووقوفه أمام محاولات القيصر القضاء على "الدوما"، ونفذ مشروع الإصلاح الزراعي الذي حسن من أوضاع الفلاحين الروس وجعلهم يمتلكون الأراضي، لدرجة أن لينين أصبح على يقين بأن هذا الرجل لو استمر في خططه فأن روح الثورة الموجودة كجمر تحت الرماد ستنطفئ إلى الأبد، فيما أيد المناشفة إصلاحات ستوليبين، إلا أن الاقدار حققت أمنية لينين في التخلص من هذا الرجل النافذ الشريف المصلح بحق، وجاء التخلص منه بأوامر من القيصرة ألكسندرة التي تحكمت في زوجها تماما، وكان التخلص من "ستوليبين" هو في الواقع تعبير عن النفوذ الذي بات يتمتع به ذلك الشخص الخرافي الطابع المعروف في كتب التاريخ باسم "راسبوتين".

راسبوتين

ففي هذه الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها روسيا لم يكن القيصر نيقولا الثاني (حكم ١٨٩٤-١٩١٧م) إلا رجلا ضعيفا، ظروف عصره ومشاكل وطنه أكبر من قدرته على العمل والإنقاذ، استسلم لمستشاريه ففي أول بيان رسمي له ألقاءه على الشعب أعلن صراحة عزمه أن " الأفكار التي تخامر أعضاء المجالس الإقليمية بشأن التدخل في إدارة البلاد هي أحلام لا معنى لها، وأماني باطلة، فإني معتزم التمسك بمبادئ الحكم الفردي بثبات لا هوادة فيه، وعزم لاتراجع عنه".

إلا أن أكبر خطاياه كان الخضوع لزوجته القيصرة ألكسندرا،الألمانية الأصل المكروهة من قبل البلاط والشعب معا، التي استسلمت إلى رغبات ذلك الراهب المجنون راسبوتين (جريجوري يافيموفيتش) الذي سيطر على العرش والعاصمة

تماما في الفترة من ١٩٠٥ حتى مقتله في ١٦ ديسمبر ١٩١٦م، فقد استطاع راسبوتين (وتعني الفاجر بالروسية) ان يشفي ولي العهد الأمير ألكيسيس، فأصبح المستشار الشخصي للقيصرة ومارس عليها تجاربه في التنويم المغناطيسي ومن خلال الزوجة مسلوبة العقل استطاع راسبوتين أن ينفذ إلى عقل القيصر نيقولاس نفسه، وأرسى راسبوتين قواعد دعوته الجديدة التي كانت تدعو إلى إرتكاب الخطئية الجنسية من أجل التطهر من آثامها للوصول إلى أعلى مراحل الصوفية والخلاص، وهو ما جعله يسيطر تماما على البلاط الروسي ويشيع فيه جوا من الفجور والفسوق، وأستغل راسبوتين خروج القيصر إلى ميادين الحرب العالمية الأولى، في زيادة نفوذه فقد أطلقت القيصرة يداه في تعيين الوزراء وعزلهم، وكان مقياسه الأساسي في العزل والتعيين هو الولاء لشخصه أولا وأخيرا، ونظر النبلاء لراسبوتين على انه التجسيد الحي للشيطان وان مدينة سان بطرسبرج قد تحولت على يديه إلى مدينة "الشيطان"، لذلك قرروا التخلص منه وبالفعل قدموا له كعك مسموم وعندما تناوله دهش الجميع لعدم تأثره به فقد كان يعود نفسه على جرع من السموم المختلفة حتى اكتسب حصانة طبيعية منها، فما كان من اعداءه إلا أن أطلقوا نيران مسدساتهم عليه، التي يبدو أنها لم تنه عليه ، فقرروا حمله وإلقاءه في البحر ليتم العثور على جثته بعدها بيومين. والغريب أن راسبوتين قبل وفاته بأيام أرسل إلى خطاب للقيصر يخبره فيه بقرب وفاته نتيجة مؤامرة سيشارك فيها اعضاء من اسرة القيصر وانباءه بان جزاء المشاركة في مؤامرة اغتياله هو ان عائلة رومانوف ستباد خلال عامين ويقتلون على يد الشعب الروسي، وقد كان.

ويعد راسبوتين واحدا من اغمض الشخصيات في التاريخ وتمتلئ حياته بالأسطاير والخرافات والاكاذيب، لكن الحقيقة الوحيدة في حياته أنه كشف ضعف البلاط الروسي ومدى زيفه وأخرج كل مساؤه على العلن فزادت نظرة الاحتقار من قبل الشعب الروسي لحكامه ففي الوقت الذي كان يدفع زهرة شباب روسيا حياتهم في حرب لايعرفون لما سيقوا إليها، كان البلاط وعلى رأسه القيصرة يغرق في جو المجون والعربدة والتبذير. مما كان أحد الأسباب التي دفعت الناس إلى الثورة على

حكام انفصلوا عنهم.

زعيم...بلا جماهير

واصلت الأوضاع سيرتها الأولى بعد أن تخلص القيصر من ستوليبين، وشعر القيصر أنه أصبح مطلق اليد كامل السلطات، فأقر القوانين المناهضة لليهود، وجعل تولية المناصب حكرا على التابعين والخانعين المؤمنين بسلطته المطلقة، وقام للمرة الأخيرة بحل الدوما، ووسط اعمال القيصر الهادفة إلى إعادة تركيز السلطات بين يديه، كان بطل القصة في الطرف الأخر "لينين" يعاني داخل الأوساط الاشتراكية فقد تقلص نفوذ تيار البلاشفة الذي يمثله أمام صعود تيار المناشفة الذي انتصر لفكرة الإصلاح لا الثورة، وهو ما أعلن صراحة في مؤتمر "استوكهلم" ١٩٠٦م الذي أطلق عليه مؤتمر الوحدة، تأكد فيه هزيمة "لينين" وتحول البلاشفة (الأغلبية) إلى أقلية، لكن هذا لا يعني استسلام لينين فقد عمل على حشد قواه من جديد واستعد لجولة جديدة لعلها تعيد لها نفوذه المتداعي، وجاءت الفرصة في مؤتمر لندن ١٩٠٧م، فقد استطاع ان ينتصر في معركة انتخابات الحزب على بيلخانوف، إلا أن مؤتمر لندن أثبت بما لايجعل مجالا للشك أن المركب لم يعد يسع المناشفك والبلاشفة معا. وعادت الحملة تشتد على لينين لدرجة بدى فيها فاقدا للأنصار والأعوان، لدرجة أن زوجته كروبسكايا قالت "لم يكن لدينا حزب قط"، وطالب المناشفة بضرورة تصفية جريدة البلاشفة "بروليتاريا"، لم يجد "لينين" بدا من التراجع التكتيكي فوافق على دمج جريدة "البروليتاريا" في جريدة "البرافدا" (أي الحقيقة) وهي التي يترأس تحريرها تروتسكي، وظهرت للسطح صورة للتقارب بين الطرفين إلا أن الاختلافات بينهما كانت أعمق من أي محاولة للتقارب، مع ملاحظة أن رضوخ "لينين" كان اعتراف بتفوق المناشفة أكثر منه اعتقاد بصحة اراءهم.

جاء الإنقاذ للينين الذي تحول في مطلع عام ١٩١٢ إلى زعيم بلا جماهير، من التغيرات العميقة التي جرت على سطح الساحة الأوروبية فقد بدأت نذر الحرب تتجمع في سماء أوروبا والعالم، وهي أجواء استغلها لينين جيدا خصوصا مع زيادة حدة المشكلة القائمة في روسيا من قسوة ظروف المعيشة وتذمر العمال هناك، فدعا إلى

مؤتمر في براغ، وكان المؤتمر تعبيرا عن فكر البلاشفة لتكوين ديكتاتورية أقلية، فلم يدع أحد من المناشفة للمؤتمر، الذي أقتصر على لينين ورفاقه، وبطبيعة الحال أقر المؤتمر "اللينينية" برنامجا للعمل الثوري في روسي، واغتصب المؤتمر - بإيعاز من لينين- اسم "البرافد" من تروتسكي وأصبحت معبرة عن أفكار لينين وبرنامجه الثوري، وعادت شعبية لينين في الارتفاع مرة اخرى داخل روسيا من خلال البرافدا التي كانت توزع ما بين ٢٠ ألفا و٤٠ألفا، هكذا عاد لينين بإصرار لا يعرف الإحباط ومجهود لا يعرف الكلل أن يعيد بناء سمعته الثورية من جديد ويتصدر مشهدد العمل الثوري السري في روسيا، في وقت كان القيصر يعد العدة لدخول أخر حروبه، الحرب العالمية الأولى.

خسارة الحرب

نتيجة لتوترات بين القوى الأوروبية الكبرى على مدار ربع قرن قررت تلك الدول اللجوء إلى السلاح لحسم جميع القضايا المعلقة، ولم تكن حادثة إغتيال ولي عهد التاج النمساوي أكثر من مجرد ذريعة أدبية لإعلان الحرب، فقد وقفت بريطانيا وفرنسا وروسيا في وجه ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر والدولة العثمانية، وبدات الحرب على جميع الجبهات في وقت واحد تقريبا فقد أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في ١ أغسطس عام ١٩١٤م، في وقت كانت روسيا قد وصلت إلى الحضيض الأسفل من الفوضى والتفكك، ففي مطلع عام ١٩١٤م شهدت روسيا أضراب مليون عامل عن العمل نتيجة تردي أوضاعهم، لكن ما أن اعلنت ألمانيا الحرب رسميا على روسيا، تناسى الجميع مشاكلهم واحتشد الجميع خلف القيصر في عداء واضح للألمان، فقد عدل العمال عن الإضرابات، وكفوا عن التظاهر، واندفعوا إلى معسكرات التدريب للإشتراك في الحرب، في حين أندفع النبلاء وعلية القوم إلى البحث عن رتب في الجيش، ووقف القيصر نيقولاس في مشهد مهيب في الهواء الطلق يؤدي اليمين ذاتها التي أداها إسكندر الأول عند غزو نابليون روسيا، جاوبها لحظتها هتاف الحشود المحتشدة بـ"حفظ الله القيصر"، وبدأت الحكومة في اتخاذ قرارت وطنية فقد تقرر تغيير اسم العاصمة من سان بطرسبرج وهو اسم ألماني إلى الاسم الروسي

"بطرسبراغ"، ولضمان يقظة الشعب الروسي منعت الفودكا، وفي مجلس الدوما تناسى النواب احقادهم اتجاه القيصر والحكومة، وأيدوا بالإجماع إعلان الحرب، وبدى أن الثورة التي كان ينتظرها الجميع قد أصبحت حديث خرافة، وأن لا صوت يعلو فوق صوت المعركة في روسيا.

هذه الحماسة لم تغن في أرض الواقع شيئا، فقد كانت الحرب نذير شوم وخراب على روسيا فلم تكن هناك استعدادات حقيقية للحرب أكثر من الحماسة والرغبة في هزيمة الألمان، ولم يتمتع الجيش بقيادة قوية بل كان قائده الجنرال "سوكوملينوف" يفتخر دائما بأنه خلال خمس وعشرين عاما قضاها في العسكرية لم يقرأ كتابا واحدا في المجال العسكري!!. ولم تتوافر للجحافل الروسية العداد الكافي من البنادق والمدافع السريعة الطلقات والمدافع الثقيلة والذخيرة، بل والمؤن الضرورية، بإختصار كان الجيش ذاهب لحرب عالمية بلا سلاح، في وقت كان الألمان يشحذون قرائحهم من أجل تطوير وابتكار أسلحة جديدة تضمن لهم التفوق في الحرب سريعا.

فعلى الرغم من حشد روسيا لأكثر من ١٥ مليون شاب أرسلتهم إلى أرض المعركة إلا أن هذه الحشود لم تكن تسير إلا إلى مذبحة، فعلى الرغم من أجل الاستراتيجية الروسية قائمة على ترك العدو للإندفاع داخل الأراضي الروسية ثم العمل على إحكام قيضة الدب الروسي عليه، إلا أن الحماسة الزائدة والتحريض الفرنسي، لتخفيف حدة الهجوم الألماني عليها، دفع الجيش الروسي إلى الخروج من مكمنه ويندفع صوب الحدود الغربية لملاقاة العدو الألماني، وكان خطأ الهجوم الروسي أنه اندفع على طول الجبهة الأوروبية كلها (من بحر البلطيق شمالا حتى البحر الادرياتي جنوبا) وهو ما شتت القوات الروسية وبعثرها على مساحة ضخمة من الأراضي.

لذلك انتهت أحلام الروس بنصر سريع بهزائم مروعة بدأت في معركة "تاننبرج" في نهاية أغسطس ١٩١٤م، ثم معركة "بحيرات مسوريان" في سبتمبر، وفي شهر يناير ١٩١٥م نشبت معركة ثانية حول بحيرات "مسوريان" دمر فيه الجيش الروسي المهاجم واندحرت القوات الروسية وأجبرت على التراجع صوب الحدود الروسية،

وخسرت روسيا أكثر من أربعة مليون مجند دفعة واحدة، وإنهارت معنويات الجيش الروسي إلى أقل من الصفر، وبدأت روسيا ترسل استغاثات بحلفاءها علهم ينقذونها قبل السقوط، وأنقلبت حالة الحماس التي اندلعت في جموع الشعب الروسي إلى حالة من اليأس والقنوط المطبق، مع وصول أنباء الهزائم القاسية وارتداد الجيش الروسي على أثره الجيش الألماني لا يلوي على شيء، ولم يجد الشعب الذي أذلته الهزيمة إلا أن انتقم من الجالية الألمان المقيمة في روسيا وخصوصا موسكو، فمضوا يطاردون كل امرئ يحمل اسما ألمانيا، وعلقت المشانق للجالية الألمن، وبدأت الأحاديث تتردد صراحة بأن زوجة القيصر الألمانية الأصل لها نصيب في هذه المأساة، وبدأت الصيحات الغاضبة تتوالى للتنديد بالتجاهل الفرنسي- البريطاني الذين كانوا مستعدين "للقتال إلى آخر جندي روسي".

في تلك الأثناء اتجه القيصر إلى الجبهة ليشرف بنفسه على الجبهة، وترك بطرسبراغ في يد القيصرة وهاديها الروحي "راسبوتين" الذي أصبح حاكما بأمره وقام يعزل الوزراء ورؤساء الحكومة كيف شاء، في وقت بدات القوى السياسية في العاصمة تجتمع من أجل التفكير جديا في ضرورة الإطاحة بالقيصر وتولية أبنه الصغير، واجتمعت أفكار الأسرة المالكة مع الاحزاب الشرعية اليمينية على ضرورة الإطاحة براسبوتين وهو ما تحقق فعلا في ١٦ ديسمبر ١٩١٦م كما أشرنا من قبل، ووضعت بموته نهاية فصل كئيب في فصول الازمة الروسية، وبدأت معالم الثورة التي قادها الشعب الغاضب الذي عانى من تردي الأوضاع في الداخل وهزائم مخزية على الجبهة، عرت مشاكل الداخل والخارج النظام القيصري الجاسم فوق الجميع ولم يعد من بديل إلا الإطاحة بالقيصر وزوجته الشمطاء التي لم ينس لها كبار روسيا إذلالهم أمام المجنون راسبوتين.

أصيب الروس بإحباط عام نتيجة عدم تغير الأوضاع بعد مقتل راسبوتين، فقد كان هناك اعتقاد راسخ بأن القضاء على هذا الشيطان البشري سيحرر السياسة الروسية من أسره، إلا أن شيئا لم يتغير فالقيصر مازال يحيا في وهم الإنتصار المستحيل على ألمانيا، والقيصرة أخذت تعد العدة للإنتقام من كل من شارك في إغتيال

راسبوتين، وبدأت أحاديث التحذير من الثورة ترتفع في صالونات العاصمة، وبدأت النخبة الحاكمة تفكر جديا في التخلص من القيصر نيقولاس وزوجه الشمطاء. ولم يتأثر القيصر بكل ما يجري حوله فقد ظل متمسكا بالحكم الفردي وعندما أرسل له أعمامه وأشقاؤه منذرين بأن الثورة واقعة وشيكا،إذا لم يقم بتشكيل حكومة يرضاها الشعب، لم يكن جوابه إلا أن قال:" لا أسمح لأحد بأن ينصحني". بل عندما نقل السفير البريطاني في روسيا تخوفات لندن وباريس من الثورة القادمة رد بعجرفة تليق بقيصر متغطرس قائلا: "تقول لي أيها السفير إنه يجب علي أن أكسب مرضاة شعبي، ولكن أليس أولى به هو ان يكسب مرضاتي أنا".

الثورة

وكان من الممكن للقيصر ان يطمع في أن يظل على عرشه فارغ البال إذا تحقق نصر كبير في الحرب الدائرة في قلب أوروبا، إلا ان نتائج الحرب في عام ١٩١٦م كانت كارثية فالهزائم تتوالى والامل في النصر يتلاشى، ومحاولة فرنسا وبريطانيا بالالتفاف حول القوات الألمانية والعثمانية أنتهت بكارثة وأصبحت روسيا وحيدة في الجبهة الشرقية، ولم تكن الولايات المتحدة قد أعلنت بعد إنضمامها إلى الحرب، وبدى أن حلفاء روسيا القيصرية يتساقطون فبريطانيا محاصرة من قبل الغواصات الألمانية ذلك السلاح الجديد الذي أصاب الأسطول البريطاني العظيم بالشلل، وفرنسا تتلقى الهزائم المتوالية في قلب القارة من القوات الألمانية- النمساوية.

وكشفت الوثائق الألمانية التي وقعت في يد الحلفاء في نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م عن دور ألمانيا في سبيل التعجيل بقيام الثورة الروسية، وكيف كانت ترسم لها الخطط، وتمدها بالأموال وتحاول الإشراف على حركتها بشبكة من أصدقاءها من الثوار، ولم تفعل ألمانيا كل هذا عشقا في الحرية وإنما كان يهمها أن تشتعل ثورة ضخمة في روسيا تعجل بانسحابها من الحرب، ليتمكن الألمان من الاستفادة من ٤٠٠ ألف مجند ألماني في الجبهة الروسية، ونقلهم إلى الجبهة الفرنسية لحسم الحرب سريعا، لذلك تلاقت الأحداث الداخلية التي كانت تعصف بروسيا مع التحركات الألمانية الداعمة للثورة.

الغريب أن معظم القيادات اليسارية التي ستلمع اسماءها في سماء روسيا قريبا كانوا خارج البلاد أو في سجون سيبريا الرهيبة، قد نفضوا أيديهم من الدعوة إلى الثورة بعد فشل ثورة ١٩٠٥م وانغمارهم في الصراعات الداخلية فيما بينهم، فقد كان لينين مقيم في سويسرا، بعد ان تأكد من فشل الدعوة إلى الثورة لدرجة تصريحه بأنه يعتقد أن الحياة لن تمتد به حتى يرى الثورة، فيما كان تروتسكي في طريقه إلى نيويورك، وبليخافوف ومارتوف وغيرهم من القيادات اليسارية موزعين على البلدان الأوروبية المختلفة، فربما لم يفاجأ أحد بالثورة كما فوجئ لينين ورفاقه.

واجهت الحكومة القيصرية أزمة في شهر ديسمبر ١٩١٦م، ربما تكون شبيه بأزمة عام ١٩٠٥م فقد كان جهاز الدولة شبه معطل والجيش المرتبك في وضع مأساوي على الجبهة، ورغم الحديث الذي بات يتردد في جميع المنتديات والصالونات حول الأزمة التي تواجهها روسيا ولايبدو لها مخرج في الأفق، وعلى الرغم من تحدث البعض عن الثورة كضرورة للتغيير، وإنه لا مفر من انقلاب يغيير الأوضاع للأحسن، إلا أن أحدا لم يتوقع أن تندلع تلك الثورة التي كانت أحداثها على وشك البدء، ولم يتوقع مراقب أن يخرج الشعب الروسي ليردد مع "تروتسكي" قولته المشهورة: "إن النظام القديم لم يعد محتملا".

ففي أوائل مارس عام ١٩١٧م تقرر توزيع الخبز بالبطاقات، فاشتد التزاحم على المخابز، وتلت ذلك حوادث إضراب في مصانع المعادن، وقامت النساء بمظاهرات، ووسط حالة عدم الاستقرار تلك غادر القيصر نيقولا عاصمة ملكه يوم ٨ مارس صوب الجبهة، غاض النظر عن الثورة التي قامت في نفس اليوم.

يوم النساء

الحقيقة المدهشة في الثورة أنها لم تقم لأي من دعايات السياسيين سواء من اليمين واليسار، صحيح أنهم دعوا إليها ومهدوا لها إلا أنها جاءت عفوية من قبل الشعب الروسي ذاته، فجاءت الثورة في شكل غضب عارم، فقد أضرب العمال في يوم ٣ مارس عن العمل، وقررت النساء العاملات تنظيم تظاهرة في يوم ٨ مارس عرف بـ"يوم النساء" واشتركت النساء إلى العمال في إضرابهم، وأصيبت الحياة بالشلل،

وانطلق المتظاهرين وهم يصرخون صوب المخابز قائلين "نريد خبزا" وخرجت الجماهير إلى الشوارع تعبر عن سخطها وغضبها مما جرى، لا يعرفون إلى أين يذهبون وإن كان زيادة اعدادهم من جراء انضمام ثائرين جدد كان يشجعهم على الاستمرار في غضبهم، وبداؤا يصبون غضبهم على الطبقات العليا ورموز الحكم القيصري فهاجموا رجال الشرطة والأثرياء والقصر القيصري، وساعد الجيش بموقفه الرافض لقمع الثورة بل في أبداء تعاطفه معها، في استمرار الثورة. وفي اليوم الحادي عشر من مارس جرى متغير أساسي فقد رفع الثوار شعارات تطالب بـ"سقوط المرأة الألمانية" أي القيصرة، وبدأ الزحف على القصر التي تقيم فيه، وحدث أول لقاء مع الشرطة في مساء هذا اليوم أدى إلى سقوط أول ستين قتيلا من شهداء الثورة. كان رد الفعل الثوري عنيفا فقد هوجمت أقسام الشرطة المختلفة وأشعلت فيها النيران، وبدأت العمل السلب والنهب، وبات رجال الشرطة الآن مطاردين واختفوا في الأزقة والطرقات الجانبية وبادروا بخلع ملابسهم الرسمية خوفا من القتل، وأصدر القيصر أوامره وهو في الجبهة للجنرال ايفانوف بالزحف في الحال على بطرجراد وإخضاعها.

انتصار البلاشفة

بدأت الثورة بانطلاقة قوية من الشعب الروسي الذي ضاقت به سبل الحياة، إلا أن متغيرات عدة جرت دعمت من موقف هذا الشعب المطحون وحولت تظاهرات الأيام الأولى إلى ثورة حقيقية، ففي يوم ١٢ مارس حدث التغير الأساسي في الثورة فقد قاد الجاويش كيريشنيكوف زملاءه في لواء فولنسك للقتال بجوار الثوار، واستطاع هذا البطل المجهول للثورة بإقناع لوائي "بروبرازنسكي" و"ليتوفسكي" بالإنضمام للثورة، ثم انضم لواء موسكو للثورة، واتمت الثورة تسليحها من خلال الهجوم المشترك للثوار وقوات الجيش على مستودعات الأسلحة.

سيطر الثوار بمساعدة قوات الجيش المتعاونة على الشارع، واندفع الجميع صوب قصر "توريد" مقر الدوما للبحث عن الاجراءات القادمة للثورة، أعلن نواب الدوما على الملأ سقوط حكومة القيصر، وشكلوا "لجنة طوارئ" مهمتها الأولى إعادة

الهدوء والسكينة للعاصمة،فيما شكل الاشتراكيون بزعامة المناشفة "لجنة سوفييت تنفيذية"، وبدأ الصراع بين اللجنتين على قيادة الثورة، وأن كان الواقع انتصر للمناشفة الذين شكلوا ميليشيات حلت محل شرطة القيصر المتداعية، واخترعوا سلاحا جديدا هو حق النقض "الفيتو" الذي استخدموه في براعة لإجهاض تحركات "لجنة الطوارئ" داخل مجلس الدوما، وإن كان تردد المناشفة لإعتقادهم بأنه لابد من فترة حكم برجوازي يسبق الثوة الإشتراكية، وهو موقف سيكون له آثار وخيمة على المناشفة فيما بعد.

وصلت قوات الجنرال إيفانوف المكلفة بقمع الثورة، لتجد أن الأمور تفوق قدرتها على السيطرة، فأرسل للقيصر يعلمه بمحاصرة القصر الذي تقيم فيه القيصرة من قبل الثوار، على أثر هذه التحركات تحرك القيصر صوب عاصمة ملكه إلا أنه منع من دخول المدينة من قبل الثوار، فاضطر إلى الالتجاء إلى مقر قيادة الجنرال "تروتسكي" حيث ظل وحيدا في مكبة القطار القيصري وحيدا يشاهد الأيام الأخيرة من ملكه تنقضي سريعا.

واتفق نواب الدوما مع الاشتراكيون على وضع خطة عمل تقتضي بنقل السلطة إلى "جمعية تأسيسية" منتخبة مع ضرورة اعتزال القيصر للحكم. إلا أن الاشتركيين اسطاعوا قلب الطوالة عندما اصدروا "الأمر رقم واحد" لمختلف فرق الجيش والبحرية الروسية بضرورة إطاعة أوامر السوفييت واللجان المشكلة منها، وإطاعة أوامر "لجنة الطوارئ" إذا كانت هذه الأوامر غير متعارضة مع أوامر السوفيت، وهو أمر كان يعني أن مجلس السوفييت الخاص بالاشتراكيين قد أصبح في صدارة مشهد الثورة الروسية الآن.

القيصر يتنازل

وأرسل وفد لإجبار القيصر على التنازل عن عرشه لصالح ابنه ولي العهد، إلا أن القيصر المستسلم لقدره تنازل عن العرش لا لابنه -الذي كانت صحته لا تسمح بالقيام بمهام الحكم- لكن لشقيقه الغرندوق ميخائيل، وكتب القيصر نيقولا في ١٥ مارس وثيقة تنازله عن حكم روسيا موجها خطابه لمجلس الدوما قائلا: "قد رأينا بعد الاتفاق

مع الدوما، أنه من الخير أن نعتزل عرش الدولة الروسية وننزل عن سلطتنا العليا، ورغبة منا في أن لانفارق ولدنا العزيز، قد سلمنا ميراثنا إلى شقيقنا الغرندوق ميخائيل ألسكندر روفتش، وله منا بركاتنا على ارتقاء عرش الدولة الروسية، وليمد الله روسيا بعونه".

لم تقنع اللجنة التنفيذية بهذا الانتصار السريع للثورة، وطالبت بالقضاء على الملكية بشكل نهائي، واستقبلت الجماهير الوفد العائد بنبأ خلع القيصر اسوأ استقبال فقد ساءها أن ترى فرد أخر من آل رومانوف على عرش البلاد، فأرجأ الدوما نبأ اعلان ولاية القيصر الجديد حتى يتم انتخاب الجمعية التأسيسية بناء على اقتراح من الغرندوق نفسه، وتم إعلان تشكيل حكومة مؤقتة لتسيير أمور البلاد، وبهذا أصبحت روسيا لأول مرة بدون قيصر منذ أكثر من ثلاثة قرون، وهكذا بدى أن الثورة الروسة قد انتهت بخسائر قليلة وانتصارات كبيرة، إلا أن الأيام التالية كشفت للروس أن الثورة كانت تخطو خطواتها الأولى فحسب وأن الصحفة الأولى قد انطوت من كتاب الثورة الضخم.

الحكومة المؤقتة

جاء تشكيل الحكومة المؤقتة معتدلا من خلال حزب حرية الشعب (الكاديت) الذي يضم الديمقراطيين الدستوريين، برئاسة مليكوف واعترف بها الجيش ومجالس السوفييت التي أنشأها الثوار في موسكو وبقية المدن الروسية، كما اعترفت حكومات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا بالحكومة المؤقتة، وكانت أمريكا على استعداد تام لدعم الحكومة بالأموال، واهتم حزب الأحرار بإعادة الاستقرار والسيطرة على الجماهير الثائرة، ومواصلة التقدم في الحرب للحصول على تسوية تحفظ كرامة روسيا. في حين أعلت "اللجنة التنفيذية" من شأن المسائل الداخلية كتحديد ساعات العمل وتحسين أحوال العمال، ورفعت شعار "العودة إلى الدفاع"، الذي يسمح لروسيا بالاستمرار في الحرب من خلال الدفاع عن أراضيها وعدم القيام بأي عمل هجومي، هذا داخل قصر الدوما، أما في الشارع فقد كان الثوار يريدون الخبز فقط، فقد اشتدت أزمة الخبز مع حالة الفوضى التي ضربت الأقاليم فلم تعد قادرة على مد العاصمة

بحصص القمح المفروضة عليها، في حين كثر فرار الجنود من الجبهة متصورين أن في انتظارهم مكاسب الثورة.

بدأت الطيور المهاجرة في العودة إلى ديارها من جديد فقد وصل "كمينيف" وبصحبته "ستالين" من المنفى في سيبريا وسيطرا على تيار البلاشفة داخل روسيا، وأعاد "كمينيف" تنظيم صفوف البلاشفة من خلال جريدة البرافدا التي كان قد اعاد إصدارها "موتولوف"، كذلك عاد كل من بليخانوف بعد غيبة امتدت ستة وثلاثين عاما، و"برشكو برشكوفسكايا" المعروفة باسم "الجدة" التي تعد أحد ابرز رموز العمل الثوري قبل الثورة.

عودة الغائب

رغم عودة العديد من رموز وقيادات العمل الثوري وتحديدا الاشتراكيين، إلا ان الخلافات لم تقل حدتها بين اللجنة التنفيذية التابعة لمجلس السوفيت والحكومة المؤقتة، فالخلافات طغت في أول أبريل حول قضايا تحديد عدد ساعات العمل وإطلاق حرية الصحافة، ناهيك عن النظرة العدائية التي بدأ ينظربها الفلاحون للعما، إلا ان مشكلة المشاكل كانت بحق هو إتخاذ موقف صريح من الحرب التي تورطت فيها روسيا، فبين انسحاب مذل واستمرار كارثي كانت المشاعر والاراء تختلط، امام هذه الأراء المختلفة من هنا وهناك بدى أن الثورة تحتاج ببساطة إلى قائد يحسم هذه الخلافات، ولم يتأخر القدر كثيرا في الإعلان عن قائد الثورة المبجل المنتظر، فقد ركب "لينين" قطار العودة من سويسرا، وزوده الألمان بقطار مصفح حفاظا على حياته، وفي منتصف أبريل وصل لينين إلى العاصمة الروسية آنذاك بطرجراد.

كان لينين يحيا مع زوجته حياة رتيبة في سويسرا ولم يكن يدور في خلده أن يعود يوما إلى روسيا بعد تأكده أن الثورة لم يأت أوانها بعد، كما أن الألمان فضلوا التعاون مع القيصر بالسماح له بالخروج من الحرب بشكل مشرف عن تشجيع القيام بثورة، فألغي مشروع دعم الثورة الروسية من قبل الإدارة الألمانية، لذلك عندما وصلت الأخبار الأولى للثورة لم يتحمس لينين وتجاهلها وأعتبر أن البرجوازية استلمت سلطة كانت تملكها من قبل، ولم يغير من موقف "لينين" إلا تتابع الأخبار من روسيا التي

استوعب من خلالها طبيعة ما جرى في البلاد، لذلك قرر العودة إلى روسيا عن طريق ألمانيا، التي رحبت بمساعدة لينين بعد أن تبينت أن الثورة الروسية لم تفد برلين في شيء بعد أن قررت الحكومة المؤقتة الإستمرار في الحرب، فأرادت ألمانيا بمساعدتها لينين أن تضمن بوصوله إلى السلطة خروج روسيا من الحرب، وهو وعد حصلت عليه ألمانيا من لينين الذي كان يرى أن المصلحة الروسية تقتضي الخروج من الحرب.

ودشن لينين نشاطه داخل روسيا ببرقية إلى بعض اتباعه البلاشفة قال فيها: "خططنا هي عدم الثقة مطلقا وعدم تأييد الحكومة الجديدة، والاسترابة بصفة خاصة بكيرنسكي (وزير العدل)، والضمان الوحيد هو تسليح البروليتاريا، والمبادرة بانتخاب دوما بطرجراد ولا يجب حدوث تقارب مع الأحزاب الأخرى".

وصل لينين العاصمة في ١٦ أبريل بعد غيبة استمرت لعشرة أعوام، ونظم له البلاشفة بزعامة كامينيف وستالين استقبالا رائعا، وترأس لينين الاجتماع الرسمي لحزب البلاشفة وافتتحه بهجوم قوي على سياسة سوفييت بطرجراد، واتهمهم بأنهم أصبحوا آلة في يد البرجوازية، وأوصى بضرورة القضاء على الحكومة المؤقتة، وأن يستولي الفلاحون فورا على الأراضي الزراعية، وأن يتولى العمال المسلحون إدارة المصانع. وأكد على ضرورة القضاء على الرأسمالية، وأتخذ قرارا بألا يكون هناك أي نوع من المهادنة بين البلاشفة وأي حزب آخر. بذلك يكون لينين قد أعلن منذ اللحظة الأولى لعودته عن خطته الثورية التي أنهت فترة السلام المؤقت مع المناشفة، وبدأ حربا ضروس مع التيارات المعادية للبلاشفة وما أكثرها.

عندما انعقد المؤتمر السوفيتي الروسي في بطرجراد، سيطر لينين على المؤتمر وألقى على أسماع البلاشفة والمناشفة محاضرة عرفت باسم "رسالة أبريل" أعلن فيها ضرورة حل الحكومة المؤقتة وتشكيل جمهورية من العمال "البرولتياريا" وتسليم السلطة إلى السوفييت، والقضاء على الرأسمالية، وإقامة بنك مركزي، وسيطرة الدولة على الإنتاج كله، وتأميم الأراضي الزراعية، وتسليح العامل والفلاح عوضا عن الجيش، كما طالب بأن يتآخى الجنود في الجبهة مع الألمان، وذلك لتمهيد الطريق أمام

الاشتراكية الألمانية للوصول إلى السلطة في مسعى لتحقيق الإشتراكية على مستوى العالم كله.

حاز لينين على كراهية الأحزاب بالإجماع ورفضوا خطته وأفكاره رفضا تاما، بل ان بعض البلاشفة رفضوا أفكار لينين لكنهم لم يستطيعوا ان يجهروا بمخالفة استاذهم، ولكن ما جعل "لينين" مكروها لدى رجال السياسة جعله محبوبا لدى رجل الشارع العادي الذي وجد في معظم ما يقوله لينين صدى لمشاعره لذلك تجاوب معها، على العكس كانت الحكومة المؤقتة تسعى إلى تهدئة الساحة وإعادة الأمور إلى نصابها سريعا حتى ولو جاء ذلك على حساب الوقت، وكان أول موقف تحسمه هو الموقف من الحرب فقد أرسل مليكوف وزير الخارجية إلى الحلفاء بمذكرة قال فيها أن روسيا ستحارب حتى النهاية وانها ستحترم جميع اتفاقياتها السرية مع دول الحلفاء، وهو موقف أثار غضب الأحزاب الإشتراكية، وعاد الشعب إلى الشارع، ووجد الكاديت أنفسهم بعيدا عن نبض الشارع وأنهم أصبحوا أقلية فإضطروا إلى تشكيل حكومة مؤقتة مع الإشتراكيين، وتشكلت حكومة جديدة بها عشرة اعضاء من الكاديت بالإضافة لست وزراء من الإشتراكيين، وجاءت هذه الحكومة فرصة لـ"لينين" والبلاشفة لهجوم على الحكومة الإتلافية، كما أنه تلقى دعما هائلا بعد عودة "تروتسكي" من أمريكا في ١٧ مايو، ورغم انه لم يكن بلشفيا في البداية إلا أنه ألتقى مع لينين في الكثير من الأفكار التي جعلته بلشفيا أكثر من لينين، وأصبح الأثنين معا بحضورهما الطاغي مصدر خطر على بقية فرقاء الثورة، ومن منطلق قوة على الرغم من الأقلية العددية أعلن لينين صراحة في يونيو في مؤتمر السوفييت عن فكرة دكتاتورية الأقلية القائمة على قبول البلاشفة للسلطة وفرض ارادتهم على الجميع باستخدام القوة.

وبدأت الصراعات تصبح مكشوفة أكثر بين البلاشفة ومختلف الأحزاب، ونظم لينين مظاهرة حاشدة في أول يوليو تعبيرا عن قوته الجديدة، في وقت كانت تعاني الحكومة الائتلافية من موقف صعب نتيجة هزيمة الجيش الروسي هزيمة ساحقة بقيادة وزير الجيش كيرنسكي، وهو ما أدى إلى حالة من الفوضى والشغب الثوري

ضد الحكومة أيام ١٦ و١٧ يوليو، ولم تجد الحكومة مخرجا إلا بالكشف عن ملف سري يكشف أن "لينين" ما هو إلا عميل ألماني، وهنا إنقلبت المشاعر ضد لينين وطاردته، وهاجمت الجماهير الغاضبة مقر جريدة "البرافدا"، أما لينين فقد قرر الإختفاء في فنلنده خوفا على حياته من الجماهير الغاضبة، التي وصمت البلاشفة وزعيمهم بالعملاء للألمان.

اعلان الجمهورية

كان كيرنسكي أكبر المستفيدين من تلك الأحداث التي غطت على هزيمته الساحقة أمام الألمان، الذي سيطر على البلاد بعد وصوله إلى رئاسة الحكومة في ٢٠ يوليو، إلا أن اخطاءه وتمسكه بالحرب جعلت الروس يعاودون الالتفاف من جديد حول البلاشفة ويمنعوا سقوطهم النهائي، فقد كانت الرغبة في انهاء حرب لا أمل في تحقيق نصر مشرف عارمة، ولم يكن هناك إلا البلاشفة الذين عارضوا الحرب وألحوا في إنهائها لذلك عادت الجماهير تلتف من جديد حول البلاشفة، وعندما عقد البلاشفة مؤتمرا لهم في يوم ٨ أغسطس أختاروا لينين رئيسا شرفيا على الرغم من غيابه، بعد أن تبين لهم صدق رؤيته، وقرر المجتمعون تشكيل لجنة مركزية جديدة للحزب، لكي تشرف على نشاطه، برئاسة لينين.

على الطرف الاخر بدات القوى البرجوازية برئاسة حزب الكاديت يرون ان الحل الوحيد للخروج من مأزق الفوضى التي بدأت تضرب روسيا هو في وجود حاكم بسلطات ديكتاتورية للخروج بالبلاد من هذا النفق المظلم، وكان الاختيار في البداية على الجنرال كورنيلوف ليقوم بهذا الدور، وجاء الاختيار لما له من نفوذ بين رجال الجيش وقدرة على فرض نفوذه بينهم، إلا أن كيرنسكي عندما علم ان كورنيلوف يعتزم السيطرة على مقاليد الحكم عزله من قيادة قوات الجبهة وأمره بالعودة إلى بطرجراد، كان كرونيلوف يعلم جيدا مغزى هذا الاستدعاء، لذلك أمر قواته بمهاجمة العاصمة وانتزاع الحكم بالقوة، وهو أمر رفضه سوفييت بطرجراد الذي نظم قواته من الحرس الاحمر للدفاع عن المدينة، عند وصول كورنيلوف إلى أبواب العاصمة فوجئ بحركات عصيان بين صفوف جيشه، وفي يوم كيرنسكي ١٢ سبتمبر أعلن

كيرونسكي نفسه قائدا عاما للجيش، وأصدر أوامره بالقاء القبض على كورنيلوف، الذي أودع في الدير بعد فشل محاولته الوصول إلى الحكم، فيما شكل كيرنسكي مجلس رئاسة مكون من خمسة أفراد برئاسته، وأعلن الجمهورية في روسيا في يوم ١٣ سبتمبر. وبتنحية كورنيلوف أقصيت اخر محاولات تيار الاعتدال في روسيا وأصبح الطريق مفتوحا امام البلاشفة للوصول إلى سدة الحكم.

أثناء هجوم كورنيلوف على العاصمة تم تسليح جميع اعضاء الاحزاب بما فيهم البلاشفة، لكن بعد استقرار كيرنسكي في الحكم طالب الجميع بإعادة الأسلحة لكن البلاشفة رفضوا وأصبحوا منذ هذا الحين جماعة مسلحة على اعلى مستوى، وكان البلاشفة قد حققوا انتصارا اخر اثناء الأزمة فقد أقر سوفييت بطرجراد اقتراحا بلشفيا لإعلان الجمهورية مع تنفيذ البرنامج البلشفي كاملا من تشكيل حكومة إشتراكية وتسليم الأرض للفلاح والمصنع للعامل، وضرورة الإنسحاب من الحرب وإلغاء كافة المعاهدات السرية.

ونتيجة لهذا التعاظم في القوى تم الإفراج عن تروتسكي، الذي استطاع من خلال الانتخابات الحرة أن يصبح رئيسا لمجلس سوفييت بطرجراد مع ضمان الأغلبية، وهو أمر انتشر كالطاعون في مجالس السوفييت في المدن الروسية وعلى رأسها موسكو فسيطر البلاشفة على مجالس السوفييت وأصبحت خطوتهم الأخيرة صوب السيطرة على مقاليد السلطة أقرب ما يكون، ولم يعد هناك من أمر يعطل الوصول إلى الحكم إلا إنتظار عودة لينين، الذي ساءه البطء الذي شاب تحركات البلاشفة وأرسل لهم بالتعليمات بضرورة الاسراع بتنظيم ثورة مسلحة للاستيلاء على الحكم، وانتقل بنفسه إلى بطرجراد سرا في ٢٢ سبتمبر بالتقويم الروسي القديم.

ثورة أكتوبر

اجتمع لينين في اليوم التالي مع رفاقه وقرر بعد جدال استمر عشر ساعات المبادرة إلى التمرد استجابة لرغبة لينين، قبل انعقاد الجمعية التأسيسية في ديسيمبر، وبدأ تروتسكي من خلال منصبه كرئيس لسوفييت بطرجراد إعداد البلاشفة للثورة بامدادهم بالسلاح، وبدأت حرب الشائعات حول طبيعة تحركات البلاشفة وأخذت التهم

تتردد هنا وهناك بين البلاشفة وأعدائهم، وبدأت المواجهة عندما دعا كيرنسكي الوزراء إلى الإجتماع في ساعة متأخرة من مساء ٥ أكتوبر، وأسفر الإجتماع عن إعلان حالة الطوارئ وإعتبار لجنة السوفييت العسكرية التي يسيطر عليها البلاشفة هيئة غير شرعية، وإصدار أوامر بإلقاء القبض على تروتسكي، الذي استعد جيدا وأثبت فشل الحكومة عندما لم تستطع ان تنفذ أي من قراراتها، إلا أن الطرفين أرسالا الرسائل للجيش والأسطول لضمان السيطرة عليه في لحظة الحسم، في تلك اللحظة الحرجة وصل لينين إلى مقر البلاشفة في قصر سمولني، متخفيا وانضم إلى تروتسكي في التخطيط النهائي للقفز على السلطة، وبدأت القوات البلشفية الهجوم صوب المصالح الحكومية في يوم ٧ أكتوبر فاستولوا على محطات السكك الحديدية، وبنك الدولة ومحطة القوى الكهربائية، والجسور، ومصلحة التيلفونات، وسقطت العاصمة في يد البلاشفة وأعلن تروتسكي من خلال اللجنة العسكرية التي يرأسها إسقاط حكومة كيرنسكي، وتم إلقاء القبض على الوزراء فيما كان كيرنسكي في الجبهة، وظهر لينين للمرة الأولى في مجلس سوفييت بطرجراد، الذي أجريت انتخابات اعضاءه وفاز البلاشفة بالغالبية الساحقة، وتولى رئاسة الحكومة كامينيف.

على الجانب الاخر هال المناشفة والأحزاب اليمينية انتصارات البلاشفة وقرروا العمل معا من اجل القضاء على البلاشفة فشكلوا "لجنة لإنقاذ البلاد والثورة" وبدأت الحرب الأهلية تطل برأسها على روسيا.

فقد اعلنت حكومة البلاشفة عن تشكيل مجلس "قوميسيري الشعب" من لينين رئيسا، وتروتسكي مسئولا عن الشئون الخارجية وستالين مسئولا عن شعوب الأقليات داخل روسيا، وأعلن المجلس خروج روسيا من الحرب، والرغبة في توقيع صلح منفرد مع الألمان وهو ما عرف بصلح برست ليتوفسك ٣ مارس ١٩١٨م.

كما اصدر البلاشفة مراسيم تقضي بمصادرة اراضي كبار الاقطاعيين ومعامل الرأسماليين بالاضافة الى اعلان حق شعوب الامبراطورية الروسية بالانفصال عنها، ومن اجل الحيلولة دون المحاولات الجديدة للاطاحة بالحكم شكل البلاشفة في كل اقليم ومدينة وبلدة لجانا استثنائية من شأنها مكافحة ما وصفوا بالثورة المضادة، واطلقت

عليها فيما بعد تسمية "تشي كا" ثم "كي جي بي"،وبدأت تلك اللجان الاستثنائية بممارسة الارهاب الجماعي ضد ممثلي الفئات الغنية والمتوسطة للمجتمع الروسي والمثقفين ورجال الدين والضباط المشتبه بمعاداتهم للسلطة الجديدة. اما معظم الجنرالات والضباط في الجيش الروسي فقد هاجروا الى جنوب روسيا ليشكلوا هناك وحدات متطوعين اطلق عليهم تسمية الحرس الابيض او "البيض". وفي مقابل ذلك اطلق على وحدات البلاشفة الحرس الاحمر أو "الحمر"، وتدخلت دول الحلفاء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وامريكا صراجة من اجل زحزحة حكومة البلاشفة من على الحكم وإحلال حكومة موالية محلها لضمان استمرار روسيا في الحرب.

وعندما جاءت انتخابات الجمعية التأسيسية لا تحمل الأغلبية للبلاشفة قرروا حلها في ٦يناير ١٩١٨م اتبدأ بعدها الحرب الأهلية رسميا في روسيا، وتمركزت قوات البيض في جنوب روسيا، في هذه الأجواء المشتعلة قررت القيادة البلشفية إعدام القيصر وعائلته خوفا من استغلال قوات البيض المدعومة من قبل دول الحلفاء وجوده في المطالبة بعودته، وتم تنفيذ الحكم في ١٦ يونيو ١٩١٨م باعدام القيصر الأخير نيقولاس الثاني وزوجته وبناته وابنه الوحيد ١، وحملت الجثث وألقيت في بئر منجم وصب عليهم حامض الكبريت، بتلك الحادثة البشعة اكتب السطر الأخير في قصة آل رومانوف القيصرية التي حكمت روسيا لأكثر من ثلاثة قرون.

انتهت الحرب الأهلية بعد معارك طاحنة بانتصار البلاشفة وتثبيت سلطة لينين وإعلان ديكتاتورية البورليتاريا، وأصبح لينين هو المتحكم الوحيد في مصير روسيا وانتصرت الأفكار الشيوعية التي بشر بها ماركس منذ أكثر من نصف قرن في بلد زراعية لا صناعية كما كان يتوقع، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ البشرية عنوانها الصراع بين القيم الإشتراكية التي بشرت بها روسيا السوفيتية في مواجهة القيم الرأسمالية التي دافع عنها الغرب، وهو صراع كتب له ان يشغل سنوات القرن العشرين وماتزال تداعياته تنجلى حتى يومنا هذا.